سلسلة مطويات شبكة بينونة

كن شاكرا

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن قذلان المزروعي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أعطى نعمًا غزيرة وآلاءً كثيرة، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله أما بعد:

قيمة إيمانية عظيمة يحتاجها الإنسان في حياته وفي تقلبات هذه الدنيا، وقد سبق أن ذكرت لكم أن عنوان سعادة الإنسان؛ أن يكون صابرًا عند الابتلاء، شاكرًا في النعماء، مستغفرًا من الذنوب والأخطاء.

وهنا نقف معكم وقفة يسيرة مع مسألة الشكر، الإنسان إذا لم يكن شاكرًا؛ لن يستضيء نوره إلا بهذه النسمة الإيمانية والقيمة الدينية المهمة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعد الشاكرين أنه يجزيهم ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وأخبر أن من عباده قليل من يكون شاكرًا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فلا يشكر في وقت البلاء، أو بعض الناس يشكر شكرًا باللسان خاليًا من اعتراف القلب والعمل الدال على شكر هذه النعمة، وبعض الناس يشكر ما يوافق هواه وطبيعته، ولا يشكر ما لا يوافق ذلك.

ومن هنا يجدر بنا أن نعرف أركان الشكر التي يكون بها العبد شاكرًا، وهي: اعتراف القلب بالنعم، وذكرها باللسان، ثم العمل بمقتضى هذه النعمة بما يدل على طاعة الله في هذه النعمة، لهذا كان قليل من عبادي الله الشكور، إذ قد يفوت ركن من هذه الأركان فيفوت الشكر.

وقد بين النبي ﷺ أنه: «**من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير**»[1]؛ لأن بعض الناس في الحقيقة قلبه فيه جحود، قلبه لا يستطيع أن ينظر إلى النعم الكثيرة، ولكنه يحدِّق نظره على النعم التي عند غيره ولا توجد عنده، جاء في بعض الآثار عن عبد الله بن وهب يقول: «سمعت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ يَقُولُ: الشُّكْرُ يَأْخُذُ بِجِزْمِ الحَمْدِ وأَصْلِهِ وفَرْعِهِ، فَلْيَنْظُرْ فِي نِعَمِ مِنَ اللَّهِ فِي بَدَنِهِ وسَمْعِهِ وبَصَرِهِ ويَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ وغَيْرِ ذَلِكَ، لَيْسَ مِن هَذا شَيْءٌ إلّا وفِيهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، حَقٌّ عَلى العَبْدِ أنْ يَعْمَلَ بِالنِّعَمِ اللّاتِي هي في يَدَيْهِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ في طاعَتِهِ، ونِعَمٍ أُخْرى في

(١) مسند الإمام أحمد (١٨٤٥٠).

الرِّزْقِ، وحَقٌّ عَلَيْهِ أنْ يَعْمَلَ لِلَّهِ فِيما أنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ في طاعَتِهِ، فَمَن عَمِلَ بِهَذا كانَ أخَذَ بِحِرْمِ الشُّكْرِ وأصْلِهِ وفَرْعِهِ»[٢]، هذا الأثر فيه مسألة مهمة؛ وهي أن ينظر الإنسان إلى النعم التي عنده، فمنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليك بيدين، منَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليك بالصحة وغير ذلك من النعم ولو أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمِّض عينيك؛ أترك جميع النعم وانظر إلى نعمة العين، اغمض عينيك فتعرف أن نعمة البصر نعمة ترى بها كثير من النعم، فنعمة واحدة لو وضعت في الميزان لما استطاع الإنسان أن يوفي حقها شكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف بهذه النعم الكثيرة: صحة في الأبدان، مال، بنون، بلد آمن، مجتمع مترابط، فلو نظر بقلبه نظرة صحيحة إلى ما عنده من نعم لارتاح قلبه وشكر ربه، وهذا يؤذن بثبات النعم وزيادتها قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأضرب لكم مثلًا مهمًا قد يغفل عنه البعض: الزوج نعمة عظيمة على المرأة، وهي في حاجة كبيرة له، وقد فَطَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخلق على أنهم ذكر وأنثى، وهذا يحتاج إلى هذا، وحق الزوج عظيم، فمن لم تشكر زوجها ونظرت إلى بعض النقص، لا تستطيع أن تستغني عنه ولكنها لا تشكره، فلا تعترف بقلبها، وإن كانت تشكره بلسانها وقد لا تشكره بلسانها، وقد لا تعمل ما يتبين بها أنها شاكرة لهذا جاء الوعيد على من هذا حالها فقال ﷺ: «لا ينظرُ اللهُ تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تشكرُ لزوجِها؛ وهيَ لا تَستَغني عنهُ»[٣].

وكذلك نقول للزوج: المرأة نعمة، «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»[٤]، فإذا منَّ الله عليك بامرأة صالحة؛ فاشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعمة، قال كعب: «ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الأخرى، وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها لله ولم يتواضع بها لله؛ إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له طبقًا من النار

(٢) الدر المنثور، للسيوطي، ط. دار الكتب العلمية (١/ ٢٨١).
(٣) السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٢٩٤).
(٤) صحيح مسلم (١٤٦٧).

يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه»[٥].

هناك نِعَم كثيرة لا تعد ولا تحصى قال الله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، قيل: النعم الظاهرة الإسلام، وأما الباطنة فستر الله عليك، فستره عليك المعاصي، وسئل أبو بكر بن أبي مريم: «ما تمام النعمة؟ قال: أن تضع رجلًا على الصراط ورجلًا في الجنة»[٦]، فالنعم الدينية أعظم النعم وأذكر لكم أثرًا مهمًا عن الحسن البصري قال: «مَنْ لَا يَرَى لِلَّهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعِمٍ، أَوْ مَشْرَبٍ، أَوْ لِبَاسٍ، فَقَدْ قَصُرَ عِلْمُهُ، وَحَضَرَ عَذَابُهُ»[٧].

هذه الآثار تعطينا زبدة مختصرة إلى أن النعم أنواع منها ما هو ديني ومنها ما هو دنيوي وأنه من الخطر أن يكون نظر الإنسان إلى نعمه الدنيوية، متجاهلًا النعم الدينية، لأن نعمة الدين أعظم وأجل، فـ «اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعطي الدُّنيا مَن يحِبُّ ومَن لا يحِبُّ، ولا يُعطي الدِّينَ إلَّا لمَن أحَبَّ»[٨]، فأعظم النعم: القرآن، بر الوالدين، الإحسان، طيب المعشر، الأخلاق الجميلة، هذه النعم نعم دينية وقيم عظيمة، وهي سبب كبير من الأسباب التي تجعل الإنسان يتمتع بأعظم نعيم؛ وهو نعيم الجنة.

أيضًا هذه النعم الدنيوية نِعَم معطاة ونعم مدفوعة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطى العباد نعمًا كثيرة، فبعض الناس قد تندفع عنه بعض الأمور التي يظنها نعم منصرفة فلا يشكر الله على انصرافها لأظنه منع نعمة ولو علم أن عدم وصول هذه النعم إليه خيرله لشكر الله على اندفاعها لأنه قد يكون في وجودها في حياتك شر وضرر فكم من نعمة جعلت صاحبها بطر ويسر وكم من نعمة جعلت صاحبها يتبختر ويتكبر.

وهنا على العبد أن يلاحظ أمرًا مهمًا في الشكر وهو أنه لو أصيب ببلاء ثم صرفه الله عنه فلا ينظر إلى الأسباب التي سلكها وجهده الذي عمله وينسى فضل الله فيضعف عنده الشكر

---

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم، ط. مجمع الفقه الإسلامي (ص: ٢٨١).
(٦) الشكر لابن أبي الدنيا، ط. المكتب الإسلامي – الكويت (١٨١).
(٧) الشكر لابن أبي الدنيا، ط. المكتب الإسلامي – الكويت (٩٢).
(٨) مسند الإمام أحمد (٣٦٧٢).

يقول عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيَّ: «يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ الْأَمْرُ فَيَدْعُو فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيُضْعِفُ شُكْرَهُ، فَيَقُولُ: إِنَّ الْأَمْرَ كَانَ أَيْسَرَ مِمَّا تَذْهَبُ إِلَيْهِ، قَالَ: وَيَقُولُ الْعَبْدُ: كَانَ الْأَمْرُ بِأَشَدَّ مِمَّا أَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ صَرَفَهُ عَنِّي»[٩].

وكذلك النعم الدينية نِعَم فيها استقامة وثبات تصلي، تصوم، تقرأ قرآن، تعمل بسنة النبي ﷺ انصراف قلبك عن البدع والانحرافات كل تلك نعم أعظم من النعم الدنيوية لا بد أن تحيطها بسياج الشكر؛ لذلك يقول مجاهد: «والله لا أدري أي النعمتين عليّ أعظم» لاحظ أي النعمتين عليّ أعظم «أن هداني الله للإسلام أو جنبني تلك الأهواء»[١٠]، فتجنب تلك الأهواء نعمة عظيمة تحتاج إلى شكر.

والإنسان متقلب في حياته يحتاج دومًا إلى شكر النعم؛ لأن به ثباتها ودوامها، وقد يدخل عليه آفة خطيرة في هذه القيمة العظيمة وهي الاستقلال بهذه النعمة والاغترار بها وعدم النظر إلى المُنعِم، فتقودك هذه النعم إلى أن تكون نقم؛ لأن النعمة متى صدَّت عن الله وأبعدت عنه؛ أصبحت نقمة.

وسأقارن لكم بين قصتين ونختم بها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ ورث منه العلم والحكمة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٦]، جند وجيش عظيم تحت أمره وطوعه، حتى الريح مُسَخَّرة له، وهؤلاء الجند من الجن والإنس والطير والحيوانات موزعون مرتبون ترتيبًا عند اصطفافاهم، حتى أتى سلمان بجوده وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، مع كل هذه النعم إلا أنه ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩] قارن هذا الموقف الإيماني

(٩) كتاب الشكر، لابن أبي الدنيا (ص: ١٣).

(١٠) مجموع الفتاوى لابن تمية، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (٣/ ٤١٥).

بموقف قارون الذي أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنما عنده من كنوز وأن مفاتيح كنوزه لا يحملها إلا العصبة أولوا القوية إلا أنه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، لم ردَّ النعمة إلى الله، بل قال: أنا أعلم بطريق الوصول إلى هذه النعم وأقدَر على ذلك، وأستطيع أن أجمع هذا المال، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ ما عند قارون من الملك والمال لا يصل إلى ما عند سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكن انظر إلى الفرق بين الموقفين، بين سليمان الذي كان شاكرًا فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾، وبين قارون الذي كان جاحدًا وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، فكانت نهاية قارون أن خسف الله به وبداره الأرض.

إذًا لا بد على الإنسان أن ينظر إلى هذه النعم نظرة صحيحة، نظرة من مقام إيماني وهو شكر هذه النعم، ونحن -حفظكم الله- في دولة الإمارات وكثير من الدول، وأخص الإمارات لأنها بلدي وغالية عندي، فنحن في الإمارات في نِعَم عظيمة، كم تسوى نعمة هذا الأمن الذي نعيشه؟ كم يسوى رغد العيش الذي نحن فيه؟ كما يسوى ترابط المجتمع فيما بينهم وبين قيادته؟

مهمة جدًا حتى يكون الإنسان دائم الشكر لهذه النعم أن ينظر إلى من هو دونه في كل مكان، كما قال ﷺ: «انْظُرُوا إلى مَن أسْفَلَ مِنكُمْ، ولا تَنْظُرُوا إلى مَن هو فَوْقَكُمْ، فَهو أجْدَرُ أنْ لا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ» (١١)، فمن كان صحيحًا معافى ينظر إلى من أصابه شيء من المرض، من كانت عنده سيارة ولو كانت صغيرة أو متواضعة فلينظر إلى من ليس عنده سيارة، وهكذا حتى يكون شاكرًا مرتاحًا لا يكون جاحدًا متضايقًا فتجتمع عليه نقمتين أو عذابين، عذاب ذهاب النعمة التي لن يصل لها إلا بإذن الله، والعذاب الذي في قلبه من أثر جحود النعم.

فاللهم أدم علينا الأمن والأمان وأتم علينا نعمك وأجعلنا شاكرين لها.

---

(١١) صحيح مسلم (٢٩٦٣).